الساق على الساق فيما هو الفارياق

لأحمد فارس الشدياق

بقلم: الأستاذ محمود الهجرسي

فى قرية صغيرة تدعى « عشقوت » من قرى لبنان ، وفى مفتتح القرن التاسع عشر ، وعلى وجه التحديد عام ١٨٠٥ ميلادية ، ولد أحمد فارس الشدياق مؤلف هذا الكتاب .

ولد من أبوين مسيحيين من طائفة الموارنة ، ولم يكن معروفا بهذا الاسم حين استقبلته الحياة وليدا فى كنف والديه ، وانما أطلق عليه أبوه اسم « فارس » ، فظل يعرف باسم فارس بن يوسف الشدياق الى أن ارتحل الى تونس عام ١٨٥٧ وهناك أعلن اسلامه ، وتسمى باسم الشيخ أحمد فارس الشدياق ، كما سيأتى بيانه ، وظل يحمل هذا الاسم حتى أدركته الوفاة بالآستانة عام ١٨٨٧ .

ولم يكن والداه من ذوى الثراء فى قريتهما ، ومع ذلك لم يكونا مغمورى الذكر ، بل كان لهما فى نفوس أهل القرية مكانة مرموقة ، فقد كانت أمه سيدة متدينة ، وكان والده يشتغل فى نسخ الكتب ، وهى حرفة كانت تتطلع اليها الأنظار فى ذلك الوقت بمزيد من الاحترام والتقدير ، وان كانت لا تفى بمطالب العيش . ويحدثنا الشدياق عن مولده وعن أسرته فى كتابه الساق على الساق، فيقول : « كان مولد الفارياق — يعنى نفسه — فى طالع نحس النحوس ، والعقرب شائلة بذنبها الى الجدى أو التيس ، والسرطان ماش على قرن الثور ، وكان والداه من ذوى الوجاهة والنباهة والصلاح ، الا أن دينهما كان أوسع من دنياهما، وصيتهما أكبر من كيسهما ، وكان لطبل ذكرهما دوى يسمع من بعيد ، ولزوابع شأنهما عجاج ثناء يثور فى الجبال والبيد ، ولتكرير العفاة عليهما ، واعتشاء الوفود لديهما ، تعطلت سبل دخلهما ، ونزحت بئر فضلهما ، فلم يبق فيها الا نزازات يلقى فيها المخفق المحروم سدادا من عوز ، فكانا يجودان به أيضا من عوز السداد » .

وأمضى الشدياق طفولته فى « عشقوت » ، ثم نزحت أسرته الى قرية « الحدث » القريبة من

بيروت عام ١٨٠٩ ، وهناك ابتدأ الشدياق يختلف الى كتاب القرية مع لداته من الأطفال ، ولم تكن الكتاتيب فى قرى لبنان اذ ذاك الا صورة شوهاء تعكس ما عليه التعليم من انحطاط فى ذلك العصر تحت سلطان الدولة العثمانية ، وكان التعصب البغيض فى لبنان بالذات يلعب دورا خطيرا فى النزول بمستوى هذه الكتاتيب : فكان الأطفال لا يطالعون فيها الا كتاب « الزبور » فى ترجمة ركيكة سقيمة تحيله الى سطور من الألغاز والأحاجى، فيظلون يرددون عباراته من غير فهم ، دون أن تذهب همتهم الى أبعد من ذلك بتدبر معانيه ، وتفهم مراميه ، وكان مما يزيد الأمر فداحة جهل المعلمين فى هذه الكتاتيب جهلا كان مضرب الأمثال: فلا علم يرجى عندهم ، ولا تعليم ينال على أيديهم. ونترك للشدياق نفسه وصف الكتاب الذى دخله ، وما كان عليه معلمه فى ذلك العهد ، فيقول : « كان المعلم المذكور مثل سائر معلمى الصبيان فى تلك البلاد ، فى كونه لم يطالع مدة حياته كلها سوى كتاب « الزبور »،وهو الذى يتعلمه الأولاد هناك لا غير ، وليس قولى انهم يتعلمونه مؤذنا بأنهم يفهمونه .. معاذ الله !! فان هذا الكتاب مع تقادم السنين عليه لم يعد فى طاقة بشر أن يفهمه، وقد زاده ابهاما وغموضا فساد ترجمته الى اللغة العربية ، وركاكة عبارته ، حتى كاد أن يكون ضربا من الأحاجى والمعمى ، وانما جرت عادة أهل تلك البلاد بأن يدربوا فيه أولادهم على القراءة من غير أن يفهموا معناه ، بل فهم معانيه عندهم محظور».

عانى الشدياق فى هذه المرحلة كثيرا من العنت والارهاق ، محاولا أن يفهم مما يقول المعلم شيئا دون جدوى ، وفطن والده الى ذلك ، وأدرك ما فى هذه الطريقة من افساد لملكات ولده ، وضاق المعلم ذرعا بنفور الشدياق مما يسمع ويقرأ ، وظل الطفل ظامئا قلقا ، لا ترويه هذه المعميات الغامضة، بل ابتدأ يسخر منها ، فأخرجه أبوه من الكتاب ، وبعث به الى مدرسة « عين ورقة » . وهذه المدرسة احدى حسنات الموارنة فى لبنان ، أنشئت فى القرن الثامن عشر ، وكانت ديرا يحمل اسم « مار انطونيوس » ، وفى سنة ١٧٨٩ صحت عزيمة البطريرك المارونى « يوسف اسطفان » على تحويل هذا الدير الى مدرسة تكون أقرب الى المدارس الاكليركية منها الى المدارس العلمانية ، على غرار المدارس التى أقامتها الكنيسة الكاثوليكية فى روما ، وتم ذلك بتشجيع من الشيخ « غندور سعد الخورى » الذى كان فى ذلك الحين قنصلا لفرنسا فى بيروت . ومدرسة « عين ورقة » هى التى أمدت النهضة الأدبية فى القرن التاسع عشر بمجموعة من العلماء ، كان لهم أثر بارز فى نهضة اللغة والأدب العربى فى ربوع الشرق الأوسط ، نذكر منهم على سبيل المثال : بطرس البستانى ، ورشيد الدحداح ، وأحمد فارس الشدياق ، كما تخرج فيها البطاركة يوسف حبيش ، ويوسف الخازن ، وبولس سعد ، ويوحنا الحاج .

وفى هذه السن المبكرة حلت بالشدياق كارثة مؤلمة بفقد والده ، فخيم الحزن على ذلك البيت الصغير ، واستبد بأمه ، فراحت تنفرد بنفسها كل صباح ، وتندب زوجها ، وتتحسر عليه ، وتذرف الدمع لفقده ، وكانت تتحامى أن تقع عليها عين ولدها الصغير وهى تبكى والده فتزيد أحزانها ، ولكن فارسا كان يتفقدها — وهى لا تراه — فى خلوتها ، ويبكى لوحشتها ووحدتها أشد البكاء ، فاذا رجعت كفكف عبراته ، وتشاغل بالكتابة أو

بغيرها ، كما يصف ذلك فى كتابه . ومنذ ذلك الوقت عرف أنه لا ملجأ له بعد الله غير كده ، فعكف على « النساخة » واتخذها صناعة له بعد والده ، ولكنه يعترف « بأن هذه الحرفة منذ خلق الله القلم لا توفر لمحترفها حياة كريمة ، ولا تكفى مطالب العيش ، ولا سيما فى بلاد لوقع قرشها طنين ورنين ، ولرؤية دينارها تكبيروتعويذ، الا أن ذلك جود من خطه ، ورقق من فهمه » .

وظل الشدياق يعمل فى نسخ الكتب لنفسه تارة ولغيره تارة أخرى ، حتى استطارت شهرته فى أنحاء لبنان ، فاستدعاه الأمير حيدر الشهابى، أحد الأمراء الشهابيين ، ومؤلف التاريخ المشهور، وكلفه نسخ تاريخه أو مذكراته التى كان يدونها على غرار تدوين الافرنج لمذكراتهم ، وفى ذلك يقول الشدياق : « لما شاعت براعة الفارياق فى النسخ ، أرسل اليه من اسمه على وزان بعير بيعر يستدعيه لنسخ دفاتر كان يودعها كل ما كان يحدث فى زمانه ، وليس الغرض من ذلك افادة أحد من العالمين ، وانما كان امساكا للحوادث من أن تنفلت من مدار الأيام ، أو تنفك من سلسلة الأحوال ، فان كثيرا من الناس يرون أن احضار الماضى، وجعله متطورا من الأمور العظيمة ، ولذلك كان الافرنج حراصا على تقييد كل ما يقع عندهم » .

ومضت الأيام بالشدياق فى لبنان وهو مكب على نسخ الكتب ، والتهام ما فيها من المعارف والعلوم، فأفادته هذه الحرفة ثقافة واسعة فى علوم اللغة والأدب والتاريخ ، لأنه لم يكن مجرد ناسخ يكتفى بنقل صور الحروف ، وانما كان ذا استعداد عظيم لاستيعاب كل ما ينسخه من الكتب ، والوقوف على أسرارها ، وواتته ملكة عظيمة فى حفظ كل ما يقع تحت يده من مخطوط ، فاستقام بذلك أسلوبه الأدبى ، ووقف على أسرار اللغة العربية ، وتهيأت بذلك له كل المقومات التى جعلت منه فى مستقبل أيامه رائدا من روادالاصلاح والنهضة . وظل كذلك فى موطنه حتى حدثت حادثة أدمت فؤاده ، وبغضت اليه المقام فى لبنان، وكانت الشرارة الأولى التى غيرت مجرى حياته، ذلك أن أخاه الأكبر أسعد الشدياق ـــ الذى كان بمثابة المعلم لفارس ـــ تحول من مذهبه المارونى الى المذهب البروتستانتى ، لصلته الوثيقة بالمرسلين الامريكيين ، فثارت لذلك ثائرةالبطريرك المارونى « يوسف حبيش » ، وأخذ يتهدده ويتوعده ، ويسومه سوء العذاب ، ونفاه الى دير « قنوبين » وأمر بسجنه فى مكان منفرد ، امعانا فى اضطهاده ، وسلط عليه كل ألوان العذاب ، ولما توسط له بعض أعيان الطائفة أطلق البطريرك سراحه ، ولكنه ما لبث أن تعقبه مرة أخرى ، وأعاده الى السجن من جديد ، وبالغ فى تعذيبه ، حتى قضى نحبه فى شرخ الشباب .

كره صاحبنا المقام فى لبنان ، بعد أن فقد أعز الناس لديه فى مأساة فاجعة ، ورأى أن الحياة فى بلد يسوده التعصب الطائفى ، والخلافات المذهبية ، الى حد ازهاق الأرواح ، ليست هى الحياة التى تهيىء لصاحب الرأى أن يقول رأيه، ولرجل الفكر أن ينادى بفكرته ، فشد الرحال الى مصر عام ١٨٢٥ بدعوة من المرسلين الأمريكيين ، ليكون استاذا للغة العربية فى مدارسهم ، وكأنهم بذلك أرادوا أن يطيبوا خاطره نظير ما لقيه شقيقه أسعد بسبب اعتناق مذهبهم .

أقام الشدياق بمصر من سنة ١٨٢٥ الى سنة

١٨٣٤ ، وأتاحت له هذه الاقامة أن يستزيد من معارفه فى علوم اللغة والأدب والنحو والبلاغة والصرف والشعر ، على يد كبار الأساتذة فى ذلك العهد ، ومن أشهرهم العالم الشاعر الشيخ محمد شهاب الدين ، والأديب نصر الله الطرابلسى الحلبى ، والشيخ رفاعة الطهطاوى ، الذى ضمه الى قسم التحرير بالوقائع المصرية ، فأسهم فى تحرير القسم العربى ، ووجد فى هذا القسم — الذى كان يضم أكبر كتاب عصره — ميدانا يجول فيه بقلمه الرصين ، وأسلوبه الجزل المرسل ، الذى كان يعتبر جديدا فى ذلك العصر، حيث كان القلم فيه لايزال يرسف فى اسار القيود اللفظية ، والمحسنات البديعة .

أقام الشدياق تسع سنوات بمصر ، نبه فيها ذكره ، وعرف فى أوساط الأدب والكتابة ،وعاش فيها مكرما مرموقا ، ينعم بحب المصريين وودهم، وبخيرات مصر ونيلها ، حتى نسى أيام بؤسه وشقائه بحرفة «النساخة» فى لبنان ، ولقد حركت هذه المعاملة الطيبة عواطف الشدياق فسجلها بقلمه فى كتابه الساق على الساق ، حيث يقول :« أين القلم والدواة حتى أصف هذه المدينة السعيدة ، الجديرة بالمدح من كل من رآها ، لأنها بلد الخير ومعدن الفضل والكرم ، أهلها ذوو لطف وأدب واحسان الى الغريب ، وفى كلامهم من الرقةمايغنى الحزين عن التطريب ، اذا حيوك فقد أحيوك، وان سلموا عليك فقد سلموك ، وان زاروك زادوك شوقا الى رؤيتهم ، وان زرتهم فسحوا لك صدورهم فضلا عن مجالسهم ، أما علماؤها فان مدحهم قد انتشر فى الآفاق ، وفات فخر من سواهم وفاق ، بهم من لين الجانب ، ورقة الطبع وخفض الجناح ، وبشاشة الوجه ، مالايمكن المبالغة فى اطرائه . ولكل نوع من الناس عندهم اكرام يليق به ، سواء كان من النصارى أو من غيرهم ، وربما خاطبوهم بقولهم يا سيدى، ولا يستنكفون من زيارتهم ومخالطتهم ومعاشرتهم خلافا لعادة المسلمين فى الديار الشامية ، وبذلك لهم الفضل على غيرهم ، وكأن هذه المزية ، وهى حسن الخلق ورقة الطبع ، أمر مركوز فى جميع أهل مصر ، فان لعامتهم أيضا مخالقة ومجاملة ، وكلهم فصيح اللهجة ، بين الكلام ، سريع الجواب، حلو المفاكهة والمطارحة » .

وفى سنة ١٨٣٤ دعاه الأمريكان الى مالطة لغرضين أولهما التعليم فى مدارسهم بهذه الجزيرة، وثانيهما القيام بتصحيح مايصدر عن مطبعتهم هناك من مطبوعات عربية ، وأقام فى مالطة أربعة عشر عاما استفاضت فيها شهرته الأدبية واللغوية ، وبخاصة فى أوساط المرسلين ، وذاع صيته حتى تجاوز البحر الى أوربا ، فدعته جمعية « الأسفار المقدسة » بانجلترا الى السفر الى لندن ، ليسهم فى عمل ترجمة سليمة مضبوطة منقحة لهذه الأسفار تحت اشراف المستشرق الدكتور « لى » الذى كان مكلفا ترجمة التوراة الى اللغة العربية ،فأجاب الدعوة ، وسافر الى انجلترا ، وبدأ العمل فى المهمة التى نيطت به ، وقد أتاحت له هذه الفرصة أن يكثر من التجوال فى انجلترا وفرنسا ، وأن يتعرف الى ريفهما وحضرهما ، وأن يرى عن كثب أخلاق الشعبين ، ويتعلم لغتهما ، ويقرأ لبعض أعلامهما ، ويتأثر بالحضارة الأوربية ، والأدب الغربى فيما قرأ لكبار الكتاب الغربيين .

ويجدر بنا أن نقف هنا وقفة قصيرة لنناقش عقيدة الشدياق ، بعد فراره من لبنان عقب مأساة

أخيه ، واستجابته لدعوة الارسالية الأمريكية بمصر ومالطة ، هل ظل على ولائه للمذهب المارونى ،أم تحول الى البروتستانتية ؟؟ ان كثيرا من المؤرخين يذهب الى أن الشدياق تحول الى المذهب البروتستانتى وهو فى لبنان عقب حادث أخيه ، وبعضهم يرى أنه لم يتحول الى المذهب الجديد الا تحت تأثير العمل فى هذه الارساليات ، وسواء أكان هذا أم ذاك ، فان الأعوام التسعة التىقضاها بمصر — وهى منارة الاسلام اذ ذاك — جعلتهقريبا من حظيرة الدين الاسلامى بالأزهر ، فتأثر بتعاليمه السمحة ، وأعجب بتسامح العلماء الذين عمل معهم فى الوقائع المصرية ، أو تلقى العلم على أيديهم فى مصر ، ولا يستبعد أنه ناقش تعاليم هذا الدين ، ووقف عليها من أفواه المستشرقين غير المتعصبين فى أوربا ، لذلك نراه يتجه الى خليفة المسلمين العثمانى فى حربه مع روسيا ، فيقف الى جانب دولة الخلافة ، ويحض المسلمين على تأييدها ، ويبعث الى السلطان عبد المجيد بقصيدته الرائية التى يحث فيها المسلمين على الجهاد ، ويضمنهاكثيرا من الآيات القرآنية ، ويرفعها اليه من لندن ،فتلاقى ترحيبا من السلطان ، ويدعوه لزيارة الآستانة ، ولكنه بدلا من الذهاب الآستانة شد رحاله الى تونس حين تلقى دعوة الباى أحمد ، الذى بالغ فى تكريمه ، واستقدمه فى سفينة خاصة نقلته من فرنسا الى تونس ، وذلك عقب قصيدته التى مدح بها الباى ، وأشاد فيها ببره وعطفه على فقراء باريس ومارسيليا أثناء زيارة الباى لفرنسا ، واستقبل الشدياق فى تونس بكل مظاهر الحفاوة والتكريم ، وقربه الباى اليه ، وأدنى منزلته ، وولاه أعلى المناصب ، وكان ذلك فى عام ١٨٥٧.

وفى تونس أعتنق الشدياق الدين الاسلامى ، وعرف طريقه وسط هذه العقائد التى كانت سائدة فى عصره ، ويظهر أن الشدياق عانى كثيرا من القلق الروحى الذى استبد به طويلا عقب مأساة أخيه واثر ماشاهده من تعصب المذاهب المسيحية ،وباتت نفسه تتوق الى عقيدة تستقر بها روحه الهائمة فى متاهات الظنون ، فكان اسلامه على يد شيخ الاسلام فى تونس بعد مجادلات طويلة فى العقائد الدينية ، كشفت له عن جوهر الدين الجديد الذى أقبل على اعتناقه . واستكمل بعد ذلك مظاهر اسلامه ، فسمى نفسه أحمد ، وأضاف الى اسمه لقب الشيخ وتكنى بأبى العباس .

وكان اسلام الشدياق مثار جدل كبير بين مؤرخى عصره ، كل ينظر اليه من الزاوية التى ترضيه ، أو تنفق مع عقيدته ، ولم يسلم الشدياق من الغمز والتجريح ، واتهم بأنه لم يعتنق الاسلام الا للثأر من مصرع أخيه ، أو جريا وراء المناصب والمغانم ، على أن كثيرا من المؤرخين المنصفين لم يحاولوا التشكيك فى اسلام الشدياق ، وردوا على مغامز الذين غمزوه فى اسلامه ،واتهموه بالغرض، وأيا كانت الحقيقة فان الشدياق قد اعتنق الاسلام فى تونس ، بعد أن شرح الله صدره للاسلام، وتنقل بعد ذلك فى البلاد وهو يحمل عقيدته الجديدة التى عرف بها ، بل نرى أن الاسلام قد انتقل الى بيته بعد ذلك ، فيسلم ولده سليم ، وتسلم حفيدته « روز » ، وتتزوج هذه الحفيدة من ضابط انجليزى فى الجيش البريطانى بعد أن أعلن اسلامه وتنجب له أولادا مسلمين ، أحدهم سليم الشدياق، الذى سمى بهذا الاسم تيمنا باسم جده لأمه سليم، أكبر أبناء الشيخ أحمد فارس الشدياق .

على أن اقامة الشدياق بتونس لم تطل على الرغم من الحظوة التى نالها عند « الباى » فغادر تونس بعد أن تكررت دعوة السلطان له لزيارة الآستانة ، وهناك استقبله السلطان بحفاوة بالغة، ورتب له عملا بديوان الترجمة ، وتولى تصحيح بعض المطبوعات .

ولم يقنع الشدياق بحياة الوظيفة ، وما كان لهذه الطاقة الكبيرة أن تقنع بهذا على ضفاف البسفور !! فغامر فى ميدان الصحافة بانشاء جريدة الجوائب سنة ١٨٦٠ ، وهو ميدان جديد يحتاج الى المغامرة والجهد والنصب ، ولم يحجم الشدياق عن تحمل تبعاته كاملة ، فظهر العدد الأول من الجوائب فى يوليو سنة ١٨٦٠ ، وكانت تطبع فى أول أمرها بالمطبعة السلطانية ، وهى مطبعة الحكومة، ولكن الشدياق بهمته العالية استطاع أن ينشىء لها مطبعة خاصة بعد عشر سنوات ، عرفت باسم مطبعة الجوائب ، وقد قامت هذه المطبعة بدور عظيم فى نشر الكتاب العربى ، فى عصر كان الناس فيه يتلفتون شوقا الى الكتاب المطبوع فلا يجدونه ، فسدت بذلك فراغا كبيرا ، ولبت حاجة كثير من القراء العرب والمسلمين المتعطشين الى الكتاب العربى ، وصدر عنها كثير من أمهات الكتب العربية ، وفى ذلك يقول الدكتور خليل صابات فى كتابه تاريخ الطباعة فى الشرق العربى : « والمكتبة العربية مدينة لأحمد فارس الشدياق ومطبعته بتلك الثروة الأدبية ، التى كانت مدفونة فى خزائن كتب الآستانة ، لا يعرف الناس عنها شيئا ، حتى هيأ الله لها مطبعة الجوائب » . أما صحيفة الجوائب « فقد نالت شهرة فى العالم الاسلامى لم تحظ بها صحيفة سواها منذ انشاء الصحافة العربية ، فأقبل السلاطين والملوك ورؤساء الحكومات العربية والاسلامية عليها ، كما كان المفكرون يتهافتون على قراءتها ، وبلغت من حسن التبويب والاتقان وبراعة التحرير وجودة الأساليب حدا جعلها أكبر صحف ذلك العهد ، وأوسعها انتشارا ، وباتت تتمتع بمكانة مرموقة بين الصحف العربية والعالمية ، فأخذت تنقل عنها كبريات صحف الغرب ، وتستشهد بها فى معرض الحديث عن سياسة الشرق ، ولقب صاحبها بالسياسى الشهير والصحافى الطائر الصيت ، وكان لصلته الوثيقة بالسلطان العثمانى وبرؤساء البلاد العربية والاسلامية أثر فى احتلال الجوائب لهذا المركز الخطير فى سياسة الشرق ردحا من الزمن ، ولم يكتف الشدياق بأن تتبوأ صحيفته مركز الصدارة فى السياسة ، بل جعل منها ميدانا للمساجلات الأدبية ، ومعرضا لأقلام الكتاب تصول فيها بفنون المناظرات اللغوية والعلمية ، وكثيرا ماقامت فيها المعارك القلمية بين رجال من أمثال : الشيخ ابراهيم اليازجى ، والشيخ سعيد الشرتوتى ، والدكتور لويس صابونجى ، والكونت رشيد الدحداح ، والشيخ ابراهيم الأحدب وبطرس البستانى ، والشاعر المصرى عبد الله فكرى، وغيرهم ، حتى قال عنها محمد كرد على : « لقد كانت جريدة الجوائب مثال الانشاء العربى البحت ، سارت جميع صحفنا بعدها على نسقها، وقل أن نشأت لنا جريدة فى صحتها وديباجتها العربية .. وأحمد فارس لو أنصفنا ــ هو واضع أساس الصحافة العربية » ، ويقول عنها صاحب كتاب أعيان البيان : « أفرغ فارسها مافى كنانته من جهد فى تحريرها بعبارة سهلة ، لم تكن معهودة فى أقلام كتاب الصحف فى تلك الأيام ، وجعل للآداب العربية بين انهارها مكانا فسيحا ، وميدانا

واسعا ، طالما فتح عليه أبواب المناقشات من أدباء ذلك العصر » .

على أننا نقف وقفة قصيرة ازاء السياسة التى كانت تمثلها صحيفة الجوائب ، وموقفها من التيارات العالمية فى ذلك العصر ، فالشدياق كان سائرا فى ركاب الدولة العثمانية مؤيدا لسياستها ، كما كان فى الوقت نفسه مغمورا بعطايا اسماعيل باشا ومنحه ، التى كان يغدقها عليه تأييدا لسياسته حتى عطلت الجوائب بسبب ذلك ، وكان موقفه من انجلترا موقف الصديق ، فأخذ يشيد بسياستها الودية نحو الباب العالى ، وأنها الدولة الغربية الوحيدة التى تربطها بالسلطان أوثق الروابط ،على أننا لانسى للجوائب هذه الزلة التى انحدرت اليها فى تأييدها لانجلترا ضد الثورة العرابية ،فقد قبل صاحبها أن يأخذ من انجلترا مبلغ ألف جنيه انجليزى ، ليطبع صورة المنشور الذى صدر من الباب العالى باعلان عصيان عرابى ، واثارته الفتنة فى وادى النيل ، مما جعل حركة عرابى تفقد قيمتها الوطنية ، باعتباره ثائرا عاصيا ، لا زعيما وطنيا .

وفى سنة ١٨٨٦ حضر الشدياق الى مصر للمرة الثانية ، ولكنه حضر زائرا بعد أن تعطلت جريدته الجوائب ، وكان ذلك قبل وفاته بعام واحد ،فقوبل فى مصر مقابلة كريمة ، واستقبله الخديو توفيق أحسن استقبال ، وحظى بمكانة مرموقة فى الأوساط الأدبية والعلمية فى ذلك الوقت ، رغم كبر سنه ، وقد اتيح للمؤرخ جورجى زيدان أن يراه فى هذه الزيارة ، فكتب عنه : « انه قد علاه الكبر ، وأحدق بحدقتيه قوس الأشياخ ، واحدودب ظهره ولكنه لم يفقد شيئا من الانتباه أو الذكاء ، وكان آخر أيامه حلو الحديث ، طلى العبارة ، رقيق الجانب ، مع ميل الى المجون » .

كانت زيارته لمصر زيارة وداع لهذا البلد الذى أحبه وأكرمه ، والذى وجد فيه هدوء العيش ، واستقرار الحياة بعد النصب والتعب فى حرفة « النساخة » فى لبنان . وبعد أن ودع أصحابه ومعارفه فى مصر ، وتزود من مغانيها ومجالس ادبائها ، عادالى الآستانة ، لتكون رحلته اليها هى الرحلة الأخيرة لهذا الجواب المتنقل فى مناحى الأرض ، والذى آن له أن يستريح ويهدأ بعد طول الطواف والسرى .

وفى أمسية ٢٠ من سبتمبر سنة ١٨٨٧ أحس الشدياق بدبيب العلة يسرى فى أعضائه وهو فى مصيفه فى (قاضى كوى) ، واستشعر قرب النهاية ودنو الأجل ، فبعث يطلب ولده سليما ، وكان فى باريس ، فحضر ليشهد اللحظات الأخيرة من حياة والده ، ويستمع الى آخر رغباته ، وهى أن ينقل جثمانه ليستريح الراحة الأبدية فى وطنه لبنان ، وليكون الثرى الذى استقبله وليدا ، هو الثرى الذى يحنو على أعظمه ، ثم طبع على جبين ولده قبلة حانية ، أسلم بعدها الروح بين يديه ، وخرجت الاستانة كلها تشيع الشدياق ، خرجت بعلمائها ووزرائها وساستها ورجال الأديان فيها ، وبعد شهر خرجت بيروت تستقبل جثمان الشدياق الى الجامع العمرى الكبير ، ومنه الى مقبرة الأسرة فى « الحدث » حيث بقى مدة ، نقل بعدها الى المقبرة الخاصة التى شيدت له فى محلة (الحازمية) قرب بيروت .

وقد ترك وراءه ثروة كبيرة من المؤلفات اللغوية والأدبية ، وكتب الرحلات والأسفار من أهمها :

سر الليال فى القلب ولابدال ، والجاسوس على القاموس ، وهو نقد لكتاب القاموس المحيط للفيروزآبادى ، والواسطة فى معرفة أحوال مالطة ، وكشف المخبا عن فنون أوربا ، واللفيف فى كل معنى ظريف ، ومنتهى العجب فى خصائص لغة العرب ، وديوان شعر كبير من نظمه يشتمل على اثنين وعشرين ألف بيت ، ثم كتابه الساق على الساق فيما هو الفارياق ، وهو أروع كتبه جميعا ، ألفه حين كان فى أوربا ، وطبع فى باريس سنة ١٨٥٥ ، وهو الذى نعرض له الآن بالدراسة والبحث .

الساق على الساق فيما هو الفارياق

تطل عليك شخصية الشدياق من خلال كتبه الكثيرة ، ولكن كتاب الساق على الساق فيما هو الفارياق أكثر كتبه تمثيلا لشخصيته ، وتصويرا لها ، فأنت تلمس فى غضون هذا الكتاب شخصية الشدياق اللغوية ، التى تدل على سعة اطلاعه على كتب اللغة ، وما حصل عليه من ثروة لغوية انفرد بها من بين علماء عصره ، بل بز فيها كثيرا من علماء اللغة الأقدمين ، فهو قد حشد فى هذا الكتاب حشدا عظيما من المترادفات اللغوية التى تدل على ثرائه اللغوى ، وثراء اللغة العربية فى دلالاتها اللفظية على المعانى ، وهو يحكم حسه المرهف بأصول اللغة فى هذه المترادفات التىساقها لكل معنى يخطر بالبال ، حتى ليستولد منها العجائب ، مدللا على أن كل مترادف يدل على صفةدقيقة الملامحتفرق بينهوبين غيره منالمترادفات التى وردت فى معناه ، فلم توضع هذه المترادفات فى اللغة العربية عبثا لتدور فى معنى واحد ، وانما لتلحظ فيها هذه الملامح الدقيقة التى تجعل لكل مترادف معنى يضيف اليه صفة جديدة ، بل يهديه حسه اللغوى ، وسعة اطلاعه الى أبعد من ذلك ، فيقرر أن لكل حرف فى اللغة العربية دلالةواضحة اذا وقع فى الكلمة ، كما سيأتى بيان ذلك .

والكتاب بعد ذلك يمثل الشدياق ناقدا ساخرا يتقصى عيوب الناس وعيوب مجتمعه ، فيسلط على ذلك قلما لاذعا ، يدمى ويوجع ، ويسخر ويتهكم ، فيثير الاشفاق تارة ، والضحك تارة أخرى ، وتتوالى الصور التى يعرضها فى نقده عميقة الدلالة ، واضحة الملامح ، كرسام ماهر استخدم ألوانه أحسن استخدام ، بعد أن درس طبائع النفس البشرية ، فجاءت صوره اعجازا من الاعجاز ، فأنت تعيش فيها ، أو تعيش معها ، لأنه انما ينقل اليك بعين الناقد البصير صورا حية ، تكاد تلمسها بيدك ، من خلال يراعته الساخرة البارعة ، ثم هو بعد ذلك لايبالى أين تقع سهام نقده ، ولو أصابت نحر وزير ، أو لبة كبير .

والكتاب فوق ذلك يحكى قصة هذا الجواب الذى جاب الآفاق ، وتطرح فى مطارح الأرض شرقا وغربا ، وما عرض له فى أسفاره من أحداث ووقائع ، فيسلمك من حادثة الى حادثة ، وينتقل بك من بلد الى بلد ، ويطير بك من فن الى فن ، فتحس بأنك تعيش مع الشدياق فى كل خاطرة يرويها ، أو طرفة يهز بها مشاعرك ، أما مأزق يتردى فيه ، أو فرجة ينفذ منها . حتى قال عنه الأستاذ مارون عبود : « لقد أوتى عينين لاقطتين ،ومخيلة خالقة وقريحةسيالة ، ورغبةآكلة ، ولغة لم يفلت من بين مخالبه الا القليل من مفرداتها » .

بقيت صورة تطل عليك من خلال هذا الكتاب

بالحاح ، وتأخذ عليك كل سبيل ، وتفرض نفسها عليك فى أغلب صفحاته ، فتلمحها فى كل خالجة من خلجات الكاتب ، وتلمسها فى ثنايا كتابه ناطقة نابضة ، دافقة متحركة ، تلك هى صورة المــرآة، حتى لتحس بأن الشدياق يكاد يقحم الحديث عنها اقحاما فى صفحات كتابه ، ليشبع رغبية من رغائب نفسه ، وينفس بذلك عن مكبوت عواطفه ،

أسرف الشدياق فى كتابه من الحديث عن المرأة حتى تناول أدق موضوعات الجنس ، واقتحم على المرأة أسرارها وعواطفها ، ووصف جمالها ومفــاتن أنوثتها ، وجلاها عارية مشتهاة ، تفتن العقــــول، وتأسر الألباب ، كل ذلك فى أسلوب ماجن خليع يكاد يخدش حياء القارىء ، ويضفى على المــؤلف صفة الفحولة في ميدان النساء . ويغلب على الظن أن المرأة كانت تشغل فراغا كبيرا فى قلب الشدياق وعقله ، حتى انه لم يتحرج من أن ينسب اليهــا الفضل فى وضع كتابه ، وجعل الحديث عنها ــ كما جاء فى مقدمته ــ غرضا من أغراض الكتاب .

ولقد عاب كثير من الكتاب على الشــــدياق هذا الاسفاف الذى شوه وجه كتابه ، فقال عنه جورجى زيدان : « ان عبارات مجونه تجــاوزت الحدود ، حتى لايقرأها أديب الا ود أنها لم تخطر بذهن الشيخ ، ولا جرت على قلمه » ، ويقــول عنه البستانى فى دائرة معارفه : « لولا افاضــته فى فاحش المجون ، وتصلبه فى تعزيز الوجهة التى يوجه اليها قلمه ، لقلنا انه الامام الذى يرجع اليه، والمثال الذى لايعول الا عليه » ويقول عنه الأب لويس شيخو : « انه لم يرع فى كتابه الســاق على الساق جانب الأدب » ، ويتحدث الأســتاذ أنيس المقدسى عن كتابه هذا فيقول : « قد ترى فى بعض تهكمه وانتقاداته ما يستهويك من فن ، ودقة ملاحظة فى الحديث ، ولكنك لا تتمالك عن الاشمئزاز من اسفافه فى الكثير من فصوله ، حتى لقد تقف مذهولا أمام هذه الظاهرة الأدبية التى ينحط فيها الكلام الى درجة المجــون الرخيص » ويقول عنه الأستاذ الزيات في تاريخ الأدب العربى: «قد يؤخذ على المؤلف جرأته على الأدب ،وتطرفه فى المجون ، واستعماله من الألفــاظ مالا يصدر عن مثله ، ولا يليق بفضله » .

ولقد أدرك الشدياق مـاســيثيره هذا الأدب المكشوف عن الجنس من نقد ومؤاخذة ، فاعتذر عن ذلك فى نفس الكتاب ، فقال : « وقد أراك جهلت نفسك فى هذا الفصل ، فأدرت فيــه كلاما لايليق بالنساء ، فقد تجاوزت ابن أبى عتيق وابن حجاج ، قلت : الحامل على ذلك أمران : أحدهما ابراز محاسن لغتنا هذه الشريفة ، وقدرتهــا على استيعاب معجمها الواسع لمثل هـــــذه الأغراض ، والثانى أنى قصدت الى تشويق القارئين ممن ملأوا حيطان ديارهم من قصب التبغ الى شراء كتــــاب فى اللغة » ، ويلتمس لنفسه العذر فى موضـــــع آخر ، فيذكر أن كبار رجال الدين والكنيسة ، من أمثال « استون » و « جون كليلاند » و « ربلى » ألفوا كتبا فى المجون ، وأخبار عشيقاتهم ، بمــا يفوق كلام ابن الحجاج وابن أبى عتيق وابن صريع الدلاء ، ومؤلف كتاب ألف ليلة وليلة .

على أن هذا لايذهب بقيمة الكتاب ، وأثره بين أمهات الكتب ، ولا ينقص من خطورته اللغــوية والأدبية ، وقد يــكون المؤلف فى ذلك متأســيا بما جاء فى كتب الأدب العربى فى العصور القديمة ــ أو فى بعضها ــ من مجون وفحش ، حتى ان

بعضها قد مسخ وشوه ، حين أعيد طبعه بعد حذف ما فيه من مجون ، ولعله صادق الاعتذار حين أراد أن يضيف الى معجمنا اللغوى كل ماقيل فى المرأة ، وأن يحيى مامات من ألفاظ عفى الحياء عليها من معجمنا ، ولذلك ترى كاتبا كالأستاذ مارون عبود يدافع عن الشدياق فى كتابه « جدد وقدماء » فيقول : «سألنى ويسألنى كثيرون ماذا عند أحمد فارس الشدياق حتى تطنب فى الثناء عليه هذا الاطناب ، وتنادي به أبا وزعيما للنهضة؟ فجوابى الى هؤلاء كلهم : طالعوا كتب أحمد فارس الشدياق ، فهى لاتقرأ من عنوانها ؛ ان فى كتب الشدياق لأدبا وعلما وسياسة ، ويقولون لي: والأحماض ؟ فاهز رأسي ، وأعجب من هؤلاء ، وفيهم من يدعى سعة الاطلاع ، فكأنهم لميقرأوا من كتب أدباء العرب غير مختاراتها ، فلو قرأوها كلها لعلموا أن أحماض أحمد فارس أقل جدا من التى عند المؤلفين العرب » .

هذه هى ملامح الشدياق من خلال كتاب « الساق على الساق ، فيما هو الفارياق » ، والذى يعتبر بحق أكبر كتبه ، وأحفلها بكل ممتع وطريف، أو هذا هو طابع الكتاب الذى نحن بصدد دراسته، والذى يقول عنه صاحب كتاب أعيان البيان : « كتاب الساق على الساق ، فيما هو الفارياق من أجل الكتب وأمتعها ، جمع بشر اللهو الى عبوس الجد ، وأغرب فيه وأطرب ، وذهب فى ابداعه كل مذهب ، لم يتبع فيه سابقا ، ولن يبلغ شأوه فيه لاحق » .

والكتاب يتألف من أربعة أقسام ، سمى كل قسم منها كتابا ، وكل كتاب يتكون من عشرين فصلا ، وقد قدم له بمقدمة يكشف فيها عنأغراض الكتاب ، فيقول : « ان جميع ما أودعته في هذا الكتاب انما هو مبني على أمرين : أحدهما ابراز غرائب اللغة ونوادرها، فيندرج تحت جنس الغريب نوع المترادف والمتجانس ، وقد ضمنت منها هنا أشهر ماتلزم معرفته ، وأهم ماتمس الحاجة اليه على نمط بديع ، ولو ذكر على أسلوب كتب اللغة مقتضبا عن العلائق لجاء مملا ، وقد راعيت سرده مرة على ترتيب حروف المعجم ، ومرة نسقته بفقرة مسجعة ، وعبارات مرصعة ، ومن ذلك القلب والابدال ، كما في التورور والشورور والتوثور والترتور ، وتمطي وتمتي وتمطط وتمدد ، ومنه ايراد ألفاظ كثيرة متقاربة اللفظ والمعنى منحرف واحد من حروف المعجم : نحو الغطش والغمش، والبهز والبحز والبغز والحفز ، تنبيها على أن كل حرف يختص بمعني من المعاني دون غيره ، وهو من أسرار اللغة العربية ، التي قل من تنبه لها » . ثم يتبع ذلك بالحديث عن خصائص الحروف ، ويسوق في ذلك أمثلة كثيرة ، فيقول : « ان من خصائص حرف الحاء السعة والانبساط نحو : الابتاح والبداح والبراح والأبطح والابلنداح والرحرح والمرتدح والروح والتركح والتسطح والمسطوح والمسمح والساحةوالانسياح والشدحة والشرحوالصفيحة والصلدح والاصطلناحوالمصلفح والطح والمفرطح والفشح والفطح والفلطحة ..الى آخر الباب » ثم يمضي بعد ذلك في خصائصحرف الدال والميم وغيرهما ، مستشهدا على ذلك بألفاظ كثيرة من معجمه الذى لاينضب ، حتىليتملكك البهر والاعجاب أمام هذه الخوارق التي يأتي بها، ثم يعرض فى المقدمة لكتاب المزهر في اللغةللامام السيوطي ، وماذكره فيه من خصائص اللغة نقلا عن الامام اللغوى ابن فارس ، فيرى أنه لميتعرض

لهذا النوع ، بل ربما أورد من الخصائص أحيانا مالا ينبغي ايراده ، ومما ساقه في الكتاب ، ونوه عنه في المقدمة الغريب النادر من الألفاظ ، مثل أكهي ، في صفة الرجل المتقرقف من البرد ، وغير ذلك مما أطال فيه وأفاض ، وفسر بعضه وترك البعض ، فرارا — على حد زعمه — من تكبير الكتاب .

أما الأمر الثاني الذي بنى عليه الكتاب غير ابراز غرائب اللغة ونوادرها فهو ذكر محامد النساء ومذامهن ، وحركاتهن الشائقة ، وضروب محاسنهن المتنوعة ، « التي لم يتصور منها شيء الا وذكرته في هذا الكتاب ، لا بل أودعته معظم خواطرهن وأفكارهن ، وكل ما اختص بهن » .

ويجعل بعد ذلك فاتحة الكتاب قصيدة شعرية طويلة ، بلغت أبياتها مائة بيت ، ضمنها بعض ما احتواه كتاب الساق على الساق من الملح والنوادر والطرائف اللغوية والمجون ، فيقول فيها :

هذا كتابي للظريف ظريفا
طلق اللسان وللسخيف سخيفا

أودعته كلما وألفاظا حلت
وحشوته نقطا زهت وحروفا

وبداهة وفكاهة ونزاهة
وخلاعة وقناعة وعزوفا

ثم يشيد بكتابه ، ويعترف بفضل صاحب القاموس ، فيقول :

غيري من الوصاف في ذا صنفوا
لكنهم لم يحسنوا التصنيفا

اذ كان ما قالوه مبتذلا ولم
يتقص منهم واصف موصوفا

لكن كتابي — أو أنا — بخلاف ذا
نكفي الحفي الحمد والتعريفا

لا عيب فيننا غير أنك لا ترى
صنوا لنا في فننا وحريفا

الفضل لي ، ولصاحب القاموس اذ
من لجه قولي غدا مغروفا

ويمضي بعد ذلك في قصيدته التي تعتبر مفتاحا لكل ما ورد في كتابه ، والتي يبين فيها منهجه الذي التزمه في الكتاب ، ويرد فيها على المعترضين والمتزمتين ، الذين لا يرضيهم بعض ما جاء في كتابه .

وفي الفصل الأول من الكتاب الأول يعيد المؤلف ما ذكره من الدوافع لتأليف هذا الكتاب ، وما ضمنه من الألفاظ الشائقة الرائقة ، والمعاني الفائقة الآفقة ، من كل ما خف على السمع ، ولذ للطبع ، ويتوقع أن الكتاب — مع مابذل فيه من جهد — لن يعجب كل الناس ، وبخاصة رجال الدين من المتعصبين ، ولكنه لا يباليهم ، فيرميهم بقصور الذهن عن ادراك مراميه ، وتفهم معانيه ، ويكيل لهم ألفاظا من المرادفات التي تدل على القصور وسوء الفهم ، ثم يقول لهؤلاء : « ولعمري لو لم يكن من شافع لقبوله ، واجرائه عند الأدباء — وعندكم أنتم أيضا — مجرى كتب الأدب ، سوى سرد ألفاظ كثيرة من المترادف لكفى ، بل فيه من ذكر الجمال وأهله ، أدام الله عزهن ، ما يوجب اعظامه ، وتقريظ مؤلفه حيا ، ثم تأبينه بعد مفارقته اياهن برغم أنفه » ، ثم يذهب الى أن

الألفاظ المترادفة ليست بمعنى واحد ، والاسموها المتساوية ، والدليل على ذلك أن الجمال مثلا والطول والبياض والنعومة والفصاحة تختلف باختلاف أنواعها وأحوالها بحسب اختلاف المتصف بها ، فخصت العرب كل نوع منها باسم، ولبعد عهدهم عنا تظنيناها بمعنى واحد، وقس على ذلك أنواع الحلى والمأكول والمشروب والملبوس والمفروش والمركوب ، ثم يحكم حسه اللغوى فيقول : « قد يكون هناك اسمان مشتقان من مادة واحدة ، ويدلان على معنى واحد ، كالنحجوج والنحجوجاة مثلا للريح الشديدة المر ، فلابد وأن يكون الاسم الزائد فى اللفظ زائدا فى المعنى أيضا » ، ثم يذكر أنه قد ألف كتابه هذا ،وماعنده من الكتب العربية شىء يراجعه ، ويعتمد عليه غير القاموس ، الذى لم يغادر صاحبه وصفا فى النساء الا وذكره فى قاموسه ، ولكنه ترك ذلك مغرقا فى ثنايا القاموس ، فأراد الشدياق بتأليفه هذا الكتاب أن يجمع هذه اللآلىء فى مؤلف واحد متنسق ، لتكون أعلق بالذهن ، وأرسخ فى الذكر ، قصدا منه الى التقرب الى الحسان ، ونيل رضاهن ، « لأنهن زخرف الكون ، ونعيم الدنيا وزهاها ، وغبطة الحياة ومناها ، وسرور النفس ومشتهاها ، وعلق القلب ، وقرة العين ، وانتعاش الفؤاد ، وروح الروح ، وجلاء الخاطر وتعلل الفكر، ولهو البال ، وجنة الجنان ، وأنس الطبع ، وصفاء الدم ، ولذة الحواس ، ونزهة الألباب ، وزينة الزمان ، وبهجة المكان .. بذكرهن يلهج اللسان ، ولخدمتهن تسعى القدم ، وتتحمل الأعباء ، وتتجشم المشاق ، ويهون الصعب ، ويتجرع الصاب ، ويقاسى الضر ولرضائهن يذل العزيز ، ويبذل النفيس ، ويذال المصون ، وان خلاق الرجل من دونهن حرمان ، وفوزه خيبة ، وهناءه تنغيص ، وأنسه وحشة ، وشبعه جوع ، وارتواءه ظمأ ، ورقاده أرق ، وعافيته بلاء ، وسعادته شقاء » ، ثم يعتذر عن خلو عبارته فى وصف النساء من التجنيس والترصيع ، والاستعارات والكنايات بقوله : «لم يكن يخطر ببالى التفتازانى والسكاكى والآمدى والواحدى والزمخشرى والبستى وابن المعتز وابن النبيه وابن نباته ، وانما كانت خواطرى كلها مشتغلة بوصف الجمال ، ولسانى مقيدا بالاطراء على من أنعم الله تعالى عليه بهذه النعمة الجزيلة ، وبغبطة من خوله عز وجل عزة الحسن ، وبرثاء من حرمه منه ، وفى ذلك شاغل عن غيره ، على أنى أرجو أن يكون فى مجرد وصف الجمال من الطلاوة والرونق والزخرفة ما يغنى عن تلك المحسنات ، استغناء الحسناء عن الحلى ، ولذلك يقال لها غانية، وبعد ، فانى قد علمت بالتجربة أن هذه المحسنات البديعية التى يتهور فيها المؤلفون كثيرا ما تشغل القارىء بظاهر اللفظ عن النظر ، فى باطن المعنى، ولعمرى انه ليس فى هذا الكتاب شىء يعاب سوى وجدانك الفارياق « وهو الشدياق نفسه الذى أطلق على نفسه هذا الاسم » فيه تارة يحشر فى سرب الغوانى ، وتارة يدمق عليهن وهن آمنات فى حجالهن ، أو فى حديقة أو زاوية ، ولكن لم يكن لى بد من ذلك ، اذ الكتاب موضوع على قص أخباره ، وعلم أحواله » .

ثم يتكلم عن مولد الفارياق ، واختلافه الى الكتاب ، ويحمل حملة منكرة على التعليم فى هذه الكتاتيب ــ كما سبق بيانه ــ ويحمل السادة رؤساء الدين والدنيا تبعة الحفاظ على هذه

الكتاتيب ، وعدم انشاء المدارس والمطابع ، لأنهم لا يريدون لرعيتهم المساكين أن يتفقهوا أويتفقحوا بل يحاولون ما أمكن أن يغادروهم متسكعين فى مهامة الجهل والغباوة ، اذ لو شاءوا غير ذلك لاجتهدوا في أن ينشئوا لهم مطبعة تطبع فيها الكتب المفيدة ، سواء أكانت عربية أم معربة ، « فكيف ترضون ياسادتنا الأعزة لعبيدكم الأذلة أن تربى أولادهم فى الجهل والعمه ، وأن يكون معلموهم لا يعرفون العربية ولا الخط والحساب والتاريخ والجغرافية ، ولا شيء غير ذلك ، مما لابد للمعلم من معرفته ، فكم لعمرى من ملكات براعة وحذق من الله تعالى بها على كثير من هؤلاء الأولاد ، غير انه لفقد أسباب العلم ، وعدمذرائع التأديب والتخريج طفئت جذوتها فيهم على صغر .. انكم بحمد الله من المتمولين الذين لا يعجزكم ان تنفقوا كذا وكذا كيسا على انشاء مدارس ، وطبع كتب مفيدة ، فان لبطرك الطائفة المارونية دخلاله وقع عظيم ، وقدر جسيم ، بحيث يمكنه أن يحيى به قلوب طائفته هذه القارزة التى لا هم لها فى المنافسة والمباراة فى شيء بين من سبقوهم الى كل علم وفضل ، وانما همهم أن يتعلموا بعض قواعد فى نحو اللغتين العربية والسريانية لمجرد العلم بها دون فائدة ، اذ لم يعلم الى الآن أن أحدا منهم ترجم كتابا أو كراسةمفيدة في هاتين اللغتين، ولا أن البطرك أمر بطبع كتاب لغةفيهما ، ولو أنه أنفق نصف دخله فى كل سنة على تحصيل أسباب العلم ، بدل هذه الولائم والمآدب التى يهيئها لزواره ، أولو أن كلا من الأمراء والمشايخ الكرام ينفل شيئا معلوما فى كل سنة لأجل هذه المصلحة الخيرية ، لأحمد كل من فى الشرق والغرب فعله»، ثم يتحدث عن اهتمامهم بانشاء الكنائس والصوامع، واغفالهم بناء المدارس ، وانشاء المطابع .. « حتى ان الفارياق فى دولتهم السعيدة لم يمكنه أن يتعلم فى قريته غير الزبور ، وهو كتاب حشوه اللحن والخطأ والركاكة ، لأن معربه لم يكن يعرف العربية ، وقس عليه سائر الكتب التى طبعت فى بلادكم وفى رومية العظمى ، ومعلوم أن الغلط اذا تأصل فى عقل الصغير شب معه ونما ، فلم يعد ممكنا بعد قلعه ، فهل من سبب لهذا الشين سوى اهمالكم وسوء تصرفكم فى السياسة المدنية والكنائسية .. أتحسبون الركاكة من شعائر الدين ومعالمه وفرائضه وعزائمه ، وأن البلاغة تفضى بكم الى الكفر والالحاد ، والبدعة والفساد ؟؟ أما بعروقكم دم يهيجكم الى حب الكلام والجزل الفخم ، والى البلاغة والبلة ، ونسق العبارة على موجب القواعد المقررة ، والافصاح عما يخطر ببالكم ، دون الحشو المخل ، والاعتراض الممل ، والتعقيد المعل ، والاخلاء المسل » .

ثم يضرب الأمثلة بقلمه الناقد الساخر على جهل رجال الدين فى عصره ، حيث يجعلون الفعل الثلاثى رباعيا وبالعكس ، واستعمالهم ما يتعدى منه بالباء متعديا بفى وبالعكس ، واجرائهم المتعدى لازما وبالعكس ، والمهموز معتلا وبالعكس ، وعدم فرقهم بين اسمى الفاعل والمفعول، فيقولون : هم محسودون منى ، أى حاسدون لى ، وما أشبه ذلك .. ثم يقول : « وليس كتابى هذا درة المثين فى أوهام القسيسين ، حتى استوعب فيه ذكر أغلاطكم وأوهامكم ، وانما المقصود من ذلك أن أبين لكم أن أدمغتكم قد سقيت اللحن والركاكة ، من وقت ذهابكم الى الكتاب ، وقراءتكم فيه كتاب الزبور ، الى أن تصيروا كهلا وشيوخا ، وأنه مادمتم على هذه الحال ، فلن

يرجى لكم من ابلال .. فهل تعدونني يا سادة بانشاء مكاتب وطبع كتب حتى لا أطيل عليكم هذا الفصل ، فان بقلبي منكم لحزازات حاكة ، وبصدري عليكم ملامات صاكة » .

وينتهي الأمر بخروج الفارياق من الكتاب بعد أن أوجس منه المعلم أن يربكه في مسائل تصعب عليه ، فينفضح بها ، فأشار على والده باخراجه ، واشتغل بنسخ الكتب في البيت ، ولم يكن قرير العين بهذه الحرفة ، اذ كان يعتقد أن الرزق الذي يأتي من شق كشق القلم لا يكون الاضيقا، غير أنه « قنع بالحرفة التي يتعاطاها ، ولم يشق عليه أمت الشق ، ولم يشرئب الى ما ليس يحسنه » .

وينقلك الكتاب في بقية فصوله مع الفارياق في الطريق التي سلكها بعد ذلك ، وفي نوادره وقصصه ، ونقده وسخريته ، وبراعته اللغوية التي شاعت في أرجاء الكتاب ، وجعلت منه تحفةلغوية نادرة ، وفيما يلي عرضا لهذه المهارة اللغوية في مناسبات مختلفة :

١ ــ في معرض الحديث عن كتابه « الساق على الساق » وما تخيله من اعتراض رجال الدين عليه يقول :

ثم كأني بجوقة عظيمة من الجلاذي والنهامين والأنهمة والوقفة والوفهة والوهفة والأبيلين والزرازرة والقمامسة ، وأمامهم الجاثليق الأكبر ، وأمام هذا العسطوس الأعظم ، وهم يضجون ويعجون ، ويجأرون وينعرون ، ويلجبون ويصخبون ، ويزأطون ويلغطون ، ويتقترون ويتوعزون ، ويتوعدون ، ويتهددون،ويتذمرون، ويتنكرون ، ويتنمرون ، ويتشذرون ، ويتشزرون ويتعذمرون ، وينحمون وينهمون ، ويلغمون ، فأقول لهم : مهلا مهلا .. انكم قضيتم عمركم كله في حرفة التأويل ، فما يضركم لو أولتم ما تنكرونه في كتابي من أول وهلة ، وتمحلتم كما هو دأبكم لأن تجعلوا منه حسنا ما يظهر قبيحا، ومستظرفا ما يلوح من خلال عبارته فاحشا ، فاما ان قلتم ان عبارته صريحة بحيث لا تقبل التأويل ، فأقول لكم: انكم بالأمس كنتم تخطئون وتحضرمون ،وتهرءون وتلحنون ، وتلكنون وتغلطون، وتوهمون وتعكفون ، وتلبكون وتلتكون ، وتلفتون وتعصدون ، وتخلطون وتخطلون ، وتهذون وتهذرون ، وتحصرون وتلخون وتلخلخون ، وتعجمون وتجمعون ، وتفدمون وتلفون ، وتبلتعون وتلهيعون ، وتلفلفون وتلقلقون ، وتقلقلون ، وتترترون وتشرثرون وتحصرون وتفرفرون ، وتجمجمون وتمجمجون ، وتغمغمون وتمغمغون ، وتتعتعون وتنفتفون ، وتثعثعون وتثغثغون ، وتبعبعون وتبغبغون ، وتوتفون وتضغضغون ، وتعيون وتفههون ، فمتى جاءكم العلم حتى فهمتموها ، وان قلتم ان بعضها وهو السيء مفهوم ، وبعضها غير مفهوم ، قلت : لعل مالم تفهموه هو من الحسنات ، التيتذهب السيئات ، فلا ينبغي لكم على أية حالة كانت أن تحرقوه ، ولعمري لو لم يكن من شافع لقبوله ، واجرائه عند الأدباء وعندكم أنتم أيضا مجرى كتب الأدب سوى سرد ألفاظ كثيرة من المترادف لكفى ..

٢ ــ ويقارن بين الطنبور والأرغن فيحشد لك حشدا من الأصوات فيقول :

ان الطنبور بالنسبة الى الأرغن كالغصن من الشجرة ،أو كالفخذمن الجسم، اذلايسمع منه الا

طنطنة، وفي الأرغن طنطنة ودندنة وخنخنة ودمدمة وصلصلة ودربلة وجلجلة وقلقلة وزقزقة ووقوقة وبقبقة وفقفقة وطقطقة ودقدقة وقعقعة وفرقعة رشخشخة وخشخشة ، وجرجرة وغرغرة وخرخرة وقرقره وبربرة وطيطية ودبدبة وكهكهة وقهقهة ، وبعبع وبعبعة وزمزمة وهمهمة ، وحمحمة ، وغطمطمة وتأتأة ودأدأة ، وضأضاء ويأيأء وقأقاء ، وصهصلق وجلنباق ، وغطيط وجخيف ، وفحيح وحفيف ونشيش ورنين ونقيق وطنين ، وعجيج وأرير ، ودوى وخرير ، وأزيز وهرير ، وصريف وصرير ، وشخب وصبيء ومواء ، وغاق غاق ، وغق غق ، وطاق طاق وشيب شيب ، وميء ميء ، وطيخ طيخ ، وقيق وقيق ، وخاز باز ، وخاق باق ، فأين هذا كله ، هداك الله — من طن طن .

٣ — ونزل يزور أخاه في جبل الدروز ، فكتب يصف سكانه :

كانوا غلاظ الطباع ، بهم جفاء وافظاع ، وسخى الوساد والملبوس ، ملازمى الضعف والبوس ، وأقذرهم كان طباخ الأمير ، فان قميصه كان أنتن من المحماة ، وقدميه أقلتا من الوسخ ، ما لا تكاد تكشطه عنه المسحاة ، وكانوا اذا قعدوا للطعام سمعت لهم زمزمة وهمهمة ، وقعقعة وطعطعة ، فخلتهم وحوشا على جيفة ، يشرملون ويرهطون ، وينهسون ويتعرقون : ويتمششون ويتلمظون ، ويتطمقون ويلوسون ، ويلطعون ويتنطعون ، وكل ذلك في فرشطة خفيفة ، فكنت ترى في جبهة كل منهم مضمون ما قيل من لفلف ، لم يتقصف ، فاذا قاموا رأيت الرز مزروعا في لحاهم ، والوضر متقاطرا من كساهم ، فكان الفارياق اذا آكلهم قام جوعانا ، ومعت عليه امعاؤه في الليل فبات سهرانا ، فكان يقول لأخيه : عجبا لمن يعاشر هؤلاء الناس ، من الأكياس ، ما الفرق بينهم وبين البهائم ، سوى باللحى والعمائم ؟!!

٤ — ويخلط معجمه بالنقد الساخر في وصف حماره فيقول :

انه كان زبونا بليدا ، حرونا عنيدا تارزا قديدا لا يكاد يخطو الا بالهراوة ، واذا رأى نقطة ماء في الأرض ظنها بحرا ذا طفاوة ، فأجفل منها اجفال النعام ، ووجل كما يوجل من الجمام .. كان حمارا ولد حمار وأمه أتان ، من جيل كلهم حمير ، وكان لونه يضرب الى السواد ، ومس شعره كمس القتاد ، مصلم الأذنين ولا نشاط ، أعسم الرجلين بادي الامعاط ، أدرم أفوه ، أدلم أقوه ، يفركح في بسه ويرفس عند نخسه ، ويكرف ويتمرغ ، ويشغ ويبدغ ، لا تحيك فيه العصا ، ولا يعمل فيه الزجر اذا عصى ، ولا يتحرك الا اذا أحس بالعلف وان يكن زوانا ، ولا تظهر فيه الحيوانية الا اذا رأى أتانا ، حتى كثيرا ما كان يقلب حمله ، ويفسد عدله .

٥ — ويثيره ما يلازمه من نحس ، فيأتى معجمه بالمطرب والمعجب ، فيقول :

اعلم ان النحس على قسمين : نحس ملازم ، ونحس مفارق ، فالنحس الملازم مالزم الانسان في يقظته ومنامه ، وأكله وشربه ، وغدوه ورواحه ، وفي كل ما يأتيه ، والنحس المفارق ، ماخالف ذلك ، أعنى مالزم الانسان في حال دون حال ، وأعرف ما يكون لزومه في الأحوال الخطيرة الشأن ، كالزواج والسفر وتأليف كتاب ونحو ذلك ، ثم ان ما هيات النحس الملازم مختلفة أيضا ، فمنه

ما يكون كالعقدة المحكاة ، ومنه كالربقة ، ومنه كالمسمار ، ومنه كالوتد ، ومنه كالمشبك ، ومنه كالقفل بلا مفتاح ، ومنه كالغراء ، ومنه كالغمجار ومنه كاللجاذ ، ومنه كالشراس ، ومنه كالدبق والطبق ، أو كالرومة أو الشرط واللزاق ، ومنه كالجدد ، ومنه كالدم السارى فى جميع أوصال الجسد ومفاصله ، وجناجنه وسلائله ، وسناسنه وشلاشله ، وترائبه وتراقبه ، وشراسيفه وبوانيه ، وغضاريفه وحوانيه ،وربلاته ومذاخره ، وعضلاته ونواشره ، وعصبه وبوادره، وأعصاله ومراوغه ، وسافينه وناعوره ، ووريده ووتينه ، وأسهريه وأخدعيه ، ومريئه وقليقه ، وحلقومه ونجاعه ، ونائطه ونخاعه ، وأوداجه، وذفراه ، وثفنته وشظاه ، ورواهشه وشرايينه ، ونسيسيه وأشلائه ، وعموده وأشوائه ، فنحس الفارياق كان من هذا النوع .

٦ ــ ويتكلم عن أنواع العشق ومراتبه فيقول :

الظاهر ان اللغة العربية شرك للهوى ، اذ يوجد فيها من العبارات الشائقة المتصبية مالا يوجد فى غيرها ، ففى شرح المشارق لابن مالك ، أن مراتب العشق ثمانية . أدناها الاستحسان ، وينشأ عن النظر والسماع ، ثم يقوى بالتفكر فيصير مودة وهو الميل للمحبوب ، ثم يقوى فيصير محبة ، وهى ائتلاف الأرواح ، ثم يقوى فيصير خلة ،وهى تمكن المحبة فى القلب حتى تسقط بينهما السرائر، ثم يقوى فيصير هوى ، بحيث لا يخالطه تلون ، ولا يداخله تغير ، ثم يقوى فيصير عشقا ، وهو الافراط فى المحبة حتى لا يخلو فكر العاشق عن المعشوق ، وانه يقوى فيصير تتيما ، وفى هذه الحالة لا ترضى نفسه سوى صورة معشوقه ،ثم يقوى فيصير ولها ، وهو الخروج عن الحد ،حتى لا يدرى ما يقول ، ولا أين يذهب ، وحينئذ تعجز الأطباء عن مداواته . وأنا أقول : ان من أنواعه أيضا الصبابة ، وهى رقة الهوى والشوق ، والغرام ، وهو الحب المستأمر ، والهيام وهو الجنون من العشق ، والجوى وهو الهوى الباطن، والشوق وهو نزاع النفس ، والتوقان وهو بمعناه والوجد وهو ما يجده المحب من هوى المحبوب، والكلف وهو الولوع ، والشغف وهو اصابة الحب الشغاف ، أى غلاف القلب أو حجابه أو حبته أو سويداءه ، والشعف وهو أن يغشى الحب شعفة القلب ، وهو رأسه عند معلق النياط منه ، والشعف بسكون العين ، وهو بمعناه ، والتدليه وهو ذهاب الفؤاد عشقا .

٧ــويقع نظره على الاسكندرية لأول مرة حين هاجر الى مصر ، فاذا به أمام أجناس مختلفة لكل جنس شعار رأسه ، فيمضى فى وصف هذه الشعارات قائلا :

أما موقع المدينة فأنيق لكونه على البحر ، وقد زادت بهجة بكثرة الغرباء فيها ، فترى رءوس ناس مغطاة بطراطير ، وأخرى بطرابيش ، وأخرى بكمام وغيرها بمقاعط ، وأخرى ببرانس وغيرها بعمائم ، وأخرى بأصناع وغيرها بعصائب،وأخرى بعمارات وغيرها بمداميج ، وأخرى بنصاف وغيرها بقبعات ، وأخرى بقلانس وغيرها ببراطل ،وأخرى بسبوب وغيرها بأراصيص ، وأخرى بأراسيس وغيرها بخنايع ، وأخرى بقنابع وغيرها بدنيات ، وأخرى بصواقع وغيرها بصمد ، وأخرى بصوامع وغيرها بمشامذ ، وأخرى بمشاود وغيرها ببرانيط على شكل الشقيط والشبابيط والضفاريط

والضماريط والقلاليط والعضاريط والعذافيط والعماريط والقماعيط ، ومنهم من له سراويلات طويلة مفرسخة تكنس ما خلفه وما قدامه ، ومنهم من لاسراويلات له، فيعثطه باد، والناس يتمسحون بما أمامه ، ومنهم من له تبان ، ومنهم من له اتب ، ومنهم من يركب الحمير والبغال، وغيرهم على الخيل والجمال ، والابل في ازدحام ، والناس في التطام .

٨ ـ ويصف جميلة ساءها اعراض الناس عنها، فكشفت عن محاسنها ، لتجذب الأنظار اليها ، فيقول :

فزادت في كشف سافرها ، وقسامتها ومحاجرها وفتنتهم باشارتها وايمائها ، ورأرأتها وايبائها ، ورمزها ولمزها ، وهجلها وغمزها ، وغنجها ودلالها وتيهها وعجبها ، وزهوها وشكلها ، وتدعبها وتصعيرها ، ودعلجتها ودغنجتها ، وتبغنجها ، ودهمجتها ، وشزرها وخزرها ، وشنفها وحدقلتها وشغونها وازلاقها ، واستكفافها واستشفافها ، واستيضاحها واستشرافها ، وخلاعتها وخيلائها ، وتمايلها وتهاديها ،وتغدنها وتعطفها وتثنيها وتأودها، وتدكلها وتخودها ، وتذيلها وتعيلها ، وتفتلها وتقتلها ، وتذبلها وترفلها ، وتبخترها وتخطلها، وتفختها وتدهكرها ، وتبهكنها،وتهذخرها وتخلعها وتفككها ، وميحها وحككها ، وتدأديها وتغطرفها، وتوذفها وتغضفها ودألها ووهازتها ، والهوادتها ، وخيزلاها وخيزراها ، وزأبناها وأوزاها ، ومطيطائها وكردحائها ، وهبيخاها وعجيساها ، وهربذاها وحيداها .

ويمضي في ذكر هذه المترادفات التى تدل على حركات النساء وضروب مشيهن ، حتى تتعدى المائة أو أكثر .

وينزل بانجلترا فلايفوت الفارياق أن يمن على نباتها بأوصاف معجمه فيقول :

تصور فى عقلك أنك ساكن فى حارة من حارات لندره ، ذات صفين متوازيين ، متصاقبين متناوحين فى كل صف عشرون دارا ، ولكل دار باب ، ولكل باب عتبة ، وأمام كل عتبة درج أو وصيد مبلط ، ثم مثل لعينك ــ هداك الله ــ أربعين بنتا من الرمم النواهد ، والجشم الخرائد ، والعين المواغد، والرجح الثوامد ، ذوات التبهكن والمرافد ، والمراضب والمشانب ، والصلونة والسجاحة ، والأسولة والصباحة ، واللباقة والملاحة ، والكلثمة والنزارة والوثامة والنضارة، والوضاءة والبشارة والقسامة والشارة والطلاوة والوثارة، والوسامة والبضاضة ، والطراوة والغضاضة، والغرض والمسالة ، والملد والعبالة .. ثم يمضى فى هذه الصفات أكثر من ثلاث صفحات، يختتمها بوصف احداهن وهى تأخذ بيديها اللطيفتين مكشطا وصابونة ودلوا فيه ماء حميم ، ثم تجثو على ركبتيها المدملجتين، وتطفق تحك عتبة الدار ووصيدها ، وهى تتذبذب وتضطرب وتتحثحث وتتعثث وتتمثمث ،وتتبعج وتتحلج وتتخلج وتترجرج وتتمخج وتتمعج وتتنجنج وترتج وتتضحضح وتتأود ، وتتخضد وتترعد وتميد ، وتتأطر وتتدهكر ، وتتزرزر وتسجهر ، وتتمرمر وتململ ، وتمور وتتحيز ، وتترجز وتتلزلز ، وتتمزمز وتتهزز ، وتتحسس وتترهس ، وتتمخس وتترخش وتتنغش ، وترتعص وتترقص وتتلصص وتتنصنص ، وتوخص وتتخضخض ، وتلضلض وتتمخض وتتنغض ، وتتريع وتتريه وتتسيع وتتنوع ، وتتفضفض وتترقرق ، وتتريق وتتركرك ، وتروه وتريه،وتتلوه وتتلوى وتصرى.

ثم يقول بعد ذلك : يا أغنياء لندن وأعيانها ، ألم يكن لكم من وسيلة لمشاهدة هذه الشواخص والجواهض الاباذالة عزة الحسن المصون ؟ أيحل لكم انتهاك حرمة الجمال ، وأحجال أيدى هؤلاء الحسان وركبهن لتملاس أعتابكم .

٩ ـ ويصف نساء باريس فيقول :

انهن يتكلمن بالغنة والخنة ، والنشيج ،والهزج، والهزامج والترنجح ، والتطريب والسكت ، الجبرة والنبرة ، والأجش والتعثيث ، والترجيع والاضجاع والقطعة ، والتغريدوالتهويد والمد والترسيل والترتيل ، والعضل والوصل ، والزجل والهلهلة ، والادغام والترخيم ، والتنديم والترنيم ، والروم والاشباع ، والتفخيم والامالة، والتنعيم والتنغيم ، والتحزين والحنين ، والجدن والتلحين ، والطثن والشجو والترنية ، حتى ينتشى السامع فلا يعلم بعد ذلك ، هل هن يفككن أزراره أو فقاره !!

وندع معجم الشدياق لنجول معه فى بعض طرائفه التى احتواها الكتاب :

١ ـ نظم قصيدة فى هجو الدروز وهو فى ضيافة أخيه ، فبلغت القصيدة مسامع الأمير «فاستاء جدا وقال لأخيه : تالله لقد جاء أخوك أمرا فريا ،كيف يهجونا وهو ضيفنا ، وقد أنزلناه منزلا كريما ، وسقنا اليه رزقا عميما ؟ لعمر الله لئن لم يتدارك هجوه بقصيدة مدح لأغيظنه ، وكان هذا الأمير متصفا بصفات العرب فى الفروسة والنجدة ، وفى شراء الحمد جهده ، غير أنه كان يكل الأمور الى المقدور ، ولا يهمه ترتيب حاله ، والنظر فى مآله، ثم خشى من أن يكون هذا الوعيد أدعى الى زيادة الهجو ، اذا فصل عنه الفارياق وهو مغيظ ،فرأى أن الاغضاء ، أجلب للارضاء ، وأن التملق ، أوفق للتفلق ، فمن ثم سار صديقا له من علماء ملته ، وفضلاء نحلته ، أن يصنع مأدبة ، ويدعوه اليها والفارياق وأخاه ، فلما جمعهم النادى،وجىء بالحلواء على أطباق كالهوادى ، أقسم الأمير قائلا: والله لا أذوقن من هذا شيئا أو ينظم أبو دلامه ـ يعنى الفارياق ـ بيتى مديح ارتجالا ، فابتدر وقال بديها :

قد كان طبع أبى دلامة أنه
يهجو ، لأن الهجو وفق جنانه
لكنما هذا الخبيص نهاه اذ
مزجت حلاوته بمر لسانه

فجن الحاضرون استحسانا لهما ، حتى أن الأمير لم يتمالك أن صافح الفارياق ، وقبله بين عينيه ، فانعقدت بذلك الموادعة ، ورجع كل راضيا ،وقفل صاحبنا الى بيته ، وآلى ألا يعقد فيما بعد ناصيته بذنب أحد من كبراء الناس ، وأن يسد أذنيه عن صوت صيتهم وان غلب على الأجراس .

٢ ـ وفى الحوار الذى عقده بين التلميذ واستاذ النحو يبلغ بالسخرية منتهاها ، فيقول :

لكنى سمعت أن النحو انما هو مفتاح العلوم، ولا يعد منها ، فلابد وأن يكون غيره أصعب منه ، فقال له معلمه : لاتقل هكذا ، بل النحو أساس العلوم ، وكل العلوم مفتقرة اليه ، ألاترى أن أهل بلادنا لا يتعلمون سواه ، ولا يعرجون على غيره ، وعندهم أن من تمكن منه فقد تمكن من معرفة خصائص الموجودات كلها ، ولذلك لا يؤلفون الا فيه ، والعالم لايسمى عالما الا اذا كان متمكنا من النحو ، مستقصيا لجميع دقائقه ، ولا

يكاد يستتب أمر الا به ، ولو قلت مثلا ضرب زيد عمرا من غير رفع زيد ونصب عمرو فما يكون ضربه حقا ، ولا يصح الاعتماد على هذا الاخبار، فان حقيقة فعل الضرب متوقفة على علم كون زيد مرفوعا . ومثله أو أكثر منه فى الصعوبة فهم المعانى والبيان ، فقال له التلميذ : لم أسمع بذكر ذلك قط ، قال : أما أنا فقد سمعت به ، وأعرف ما يشتمل عليه ، وهو المجاز والكناية والاستعارة والتورية والترصيع وغير ذلك ، مما ينيف على مائة نوع ، وبيان ذلك مفصلا ،يستفرغ أجلا ، وربما قضى الانسان عمره كله فى علم الاستعارات وحدها ، ثم يموت وهو جاهلها ، أو يكون قد نسى فى آخر الكتاب، أو الكتب ما عرفه فى أوله ، لأن واضع هذا العلم أو مخترعه كان لا يقع بصره على شيء الا وخطر بباله طريقة من طرقه ، فاذا نظر الشمس طالعة قال : كيف ينبغى أن يفهم هنا طلوع الشمس ؟ هل هو حقيقى أو مجازى ؟ وهل المجاز عرفى أو لغوى ؟ وكذا لو رأى البقل نابتا فى زمن الربيع قال : كيف تأويل قول القائل « أنبت الربيع البقل » ؟ فهل يصح اسناد ذلك الى الربيع ، وهو انما نشأ عن دوران الأرض حول الشمس ، فهو ولا شك مسبب عنها ، ولا ريب أن مدير الأرض انما هو الله عز وجل ، فيكون قوله «أنبت الربيع البقل» مجازا بدرجتين ، لأن الربيع سبب عن دوران الأرض ودوران الأرض مسبب عن تقدير البارى تعالى ، ومن المجاز أيضا ماله ثلاث درجات ، ومنه ماله أربع ، ومنه ما تفوق درجاته درج المئذنة ، ومن هذا الدرج ما شكله قرقى ، ومنه حلزونى ، ومنه لولبى ، ومنه غير ذلك . ثم مازال المستنبط يفكر فى هذه البدائع حتى أدركه الأجل فمات ، وبقى عليه أشياء كثيرة لم يحكمها ، فقام من بعده من أولع مثله بهذا الفن ، فاستدرك على سلفه مواضع كثيرة ، وظل يباحثه ويعارضه الى أن قضى نحبه ، وقد ترك مجالا لغيره ، فجاء من بعده من أصلح بينهما فى عدة مواطن ، وعاب على كل منهما أيضا أمورا ، ثم مات ولم ينه ما قصده ، فخلفه من صنع به ما صنعه هو لغيره ، وهكذا بقيت أبواب النقد مفتوحة الى عصرنا هذا . فقال له التلميذ وقد امتقع لونه : وهل النحاة أيضا ماتوا ولم ينهوا قواعد هذا العلم ؟؟

فأجاب الأستاذ : ان ما جرى على البيانيين قد جرى أيضا على النحاة ، فقد قال الفراء : أموت وفى قلبى شيء من حتى !!! وقد مات سيبويه وبقى فى قلبه من فتح همزة ان وكسرها أشياء، ومات الكسائى وفى صدره من الفاء العاطفة والسببية والفصيحة والتفريعية والتعقيبيةوالرابطة حزازات ، ومات اليزيدى وفى رأسه من الواو العاطفة والاستئنافيةوالقسميةوالزائدة والانكارية صداع وأى صداع !! ومات الزمخشرى وفى كبده من لام الاستحقاق والاختصاص والتمليك وشبه التمليك والتعليل وتوكيد النفى وغير ذلك قروح وأى قروح !! ومات الأصمعى وفى عنقه من رسم كتابة الهمزة غدة !! وفى الجملة فان معرفة حرف واحد من هذه الحروف اذا تعمد الطالب استقصاءها ، وجب عليه أن يترك جميع أشغاله ومصالحه ، ويعكف على ما قيل فيه وأجيب عنه .

٣ ــ ويتحدث عن الأجانب فى مصر ، وكيف عظم فيها شأنهم ، مع أنهم من أفاقى البلاد وحثالتها، فيقول :

ان البرنيطة فيها تنمى وتعظم ، وتغلظ وتضخم، وتتسع وتطول ، وتعـرض وتعمق ، فاذا رأيتها على رأس لابسها حسبتها شونة ، وكنت أتعجب من ذلك وأقول : كيف صح فى الامكان ، وبدا للعيان ، أن مثل هذه الرءوس الدميمة ، الضئيلة الدميمة ، لخسيسة اللئيمة المهينة المليمة ، المستنكرة المشئومة المستقذرة المهوعة ، المستقيمة المستفظعة، المستسمجة المستشنعة ، المسترذلة المستبشعة ، تقل هذه البرانيط المكومة ، وكيف انماها هواء مصر وكبرها الى هذا المقدار ، وقد طالما كانت فى بلادها لا تساوى قارورة الفراش ، ولا توازن ناقورة الفراش ، وكيف كانت هناك كالترب ، فأصبحت هنا كالتبر ، يا هواء مصر ، يا نارها ، يا ماءها ، ياترابها ، صيرى طربوشى هذا برنيطة ، وان يكن أحسن منها عند الله والناس وأفضل ، وأجل وأمثل ، وللعين أبهى وأكمل .

٤ ــ وفى عبارة رشيقة بارعة يتحدث عن المال ، وأهمية الدينار ، فيقول :

ولا يخفى أن الدنيا لما كان شكلها كرويا كانت لاتميل الى أحد الا اذا استمالها بالمدور مثلها ــ وهو الدينار ــ فلا يكاد يتم فيها أمر بدونه ، فالسيف والقلم قائمان فى خدمته ، والعلم والحسن حاشدان الى طاعته ، ومن كان ذا بسطة فى الجسم وفضل فى المناقب ، فلا يفيده طوله وطوله بغير الدينار شيئا ، وهو على صغر حجمه يغلب ماكان كبيرا ثقيلا من الأوطار ، ولبانات النفس ، فالوجوه المدورة المدنرة خاضعة له أيان برز ، والقدود الطويلة منقادة اليه كيفما دار ، والجباه العريضة الصليتة مكبة عليه ، والصدور الواسعة تضيق لفقده .

والكتاب ــ بعد هذا العرض الموجز ــ جدير بأن يحتل مكانته بين كتب اللغة ، بعد أن يعاد تحقيقه وضبطه ، وشرح معجمه ، الذى أضاف الى اللغة العربية ثروة كبيرة من المترادفات والألفاظ اللغوية ، وأن تشرف على طبعه هيئة من الهيئات العلمية المتخصصة فى اللغة والأدب ، لأن الطبعات التى بين أيدينا لا تخلو من أخطاء كثيرة ، تذهب بأهمية هذا الكتاب .

محمود الهجرسى